

كيف بدأ النبي صلى الله عليه وسلم الدعوة في مكة ؟

دعونا بداية نتساءل كيف بدأ النبي ﷺ الدعوة؟ وبمن بدأ؟ ومن هم الذين اختارهم الرسول ﷺ ليبدأ بهم؟ حتى يمكننا الوقوف على بعض الأسرار الهامة التي يمكننا الاستفادة بها في حياتنا؟.

لم يكن اختيار النبي ﷺ عشوائياً في اختيار من يدعوه، بل كان هناك منهج واضح يسير عليه النبي ﷺ، وقبل أن نعرف منهج النبي ﷺ لا بد من سؤال. هل يؤمن الإنسان بقلبه أولاً أم بعقله؟ هل يحبك أولاً، ثم تقدم له الحجة بعد ذلك أم تقدم له الحجة أولاً؟.

الحب أولاً ثم الحجة

الحب والحجة في غاية الأهمية، لكن من الصعب جداً على الإنسان أن يقبل فكرة ما حتى ولو كانت هذه الفكرة صحيحة ومقنعة من إنسان يبغضه، ولا يحبه، وقد يدخل في جدل عقيم وحوار طويل قد لا يأتي بخير، بينما على الجانب الآخر يتقبل كثيراً من الأفكار ممن يحب وقد تكون هذه الأفكار غريبة.

إن الفكرة التي جاء بها النبي ﷺ فكرة صحيحة ومقنعة، وإذا فكر فيها عقل سليم لا بد أن يقبلها، ورغم ذلك فهذه الفكرة غريبة على أهل مكة، فقد مرّ من عُمر الأرض أكثر من ستمائة عام، لم يخرج فيه نبي، جاء النبي ﷺ على فترة من الرسل. وقد ملك **الاستغراب** عقول الناس من فكرة التوحيد على بساطتها ووضوحها، أو أن يكون هناك رسول من البشر، يقول ﷺ: “بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ”.

كانت دعوة النبي ﷺ لقريش وللناس كلهم وللعالم أجمع، ولكن في هذا الوقت بمن يبدأ ﷺ؟ لا بد أن يبدأ بمن يقبل الفكرة دون تردد؛ ليكون قاعدة عريضة يستطيع من خلالها نشر هذا الدين بين أوساط المجتمع كله. وكان أكثر الناس حباً له أكثرهم قبولاً للفكرة.

وهذا منهج لأهل الأرض جميعاً ودرسا نتعلمه من النبي ﷺ ونحن نسير في الدعوة إلى الله.

دعوته ﷺ للسيدة خديجة

أول من أسلم مع النبي ﷺ؟

بحث النبي ﷺ عن أكثر الناس حبًا له وبدأ بدعوتهم، ذهب النبي ﷺ أولاً إلى زوجته الصالحة السيدة خديجة رضي الله عنها فمن المؤكد أنها أول من آمن على ظهر الأرض، فهي التي كانت تتابع مع النبي ﷺ أحداث الوحي، فهي التي ذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وعرفت أن هذا جبريل عليه السلام الناموس الذي ينزل على الأنبياء إلى أن نزل قوله تعالى [قُمْ فَأَنْذِرْ] {المذثر:2}.

فآمنت السيدة خديجة رضي الله عنها، ومن الممكن أن نقول إنها آمنت قبل التصريح بالرسالة، حيث قالت: “كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا”. والسيدة خديجة أحبت النبي ﷺ حبًا لا يوصف، فكان هذا الحب هو طريق تصديق العقل والحب وحده لا يكفي، فقالت له: “إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَكْسِبُ الْمَغْدُومَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ”. وهذه الصفات لا يمكن أن تجتمع في كذاب أو مُدَّعٍ لهذا الأمر، وهي التي ذهبت به إلى ورقة ويؤكد ورقة بعد ذلك على أنه نبي، وينزل الملك ويخبره أنه رسول، والرسول ﷺ يخبرها بذلك، وهي تعلم صدقه وأنه لا يكذب، وهذا الكلام ليس من كلام البشر، فلا بد أن هناك قوة فوق قوة البشر، كل هذا الكلام دار بخلد السيدة خديجة رضي الله عنها، وما أعتقد أن هذا الكلام كان سيدور بهذه السلسلة وهذه البساطة لو كانت بينها والنبي ﷺ مشاحنات أو مخاصمات أو كدر في العلاقة الزوجية، وبرغم أن الحب والحجة في غاية الأهمية إلا أن الحب دائمًا يأتي أولاً.

دعوته ﷺ لسيدنا أبي بكر الصديق

أول من أسلم مع النبي ﷺ من الرجال ؟

بعد السيدة خديجة رضي الله عنها ذهب النبي ﷺ إلى أحب الرجال إلى قلبه، فإذا كانت السيدة خديجة هي أحب النساء إلى قلبه، فسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو أحب الرجال إلى قلبه ﷺ، ولما سأل النبي ﷺ عن أحب الرجال إلى قلبه قال: “أبو بكر”، وما تردد أبو بكر رضي الله عنه في قبول هذا الدين لحظة واحدة، يقول ﷺ: “مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ عَنْهُ كَبُورَةٌ وَتَرَدُّدٌ وَنَظَرٌ، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، مَا عَنَّمُ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ مَا تَرَدَّدَ فِيهِ”. لم يفعل أحد من البشر مثل ما فعل هو والسيدة خديجة رضي الله عنهم أجمعين.

إن سرعة إيمان أبي بكر تحتاج إلى دراسة، فمما دفعه إلى ذلك أنه كان أقرب الناس لأخلاق النبي ﷺ، وكثيرًا ما كان يختار من الآراء ما يختاره الرسول ﷺ حتى في غياب أحدهم عن الآخر.



وكانت أخلاق سيدنا أبي بكر كأخلاق الأنبياء، ولم يمش على الأرض خير من أبي بكر إلا الأنبياء.

وكان بين سيدنا أبي بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ توافق عجيب في أمور الأخلاق، أشهرها **الصدق** فالرسول ﷺ هو الصادق الأمين، وأبو بكر هو الصديق رضي الله عنه، التواضع والكرم والعفة والبُعد عن أماكن الفساد والمروءة وخدمة الناس، كل هذه عوامل أدت إلى سرعة إيمان الصديق رضي الله عنه.

دعوته ﷺ لسيدنا زيد بن حارثة

بعد إسلام السيدة خديجة وإسلام أبي بكر رضي الله عنهما تحدث النبي ﷺ إلى مولاه سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه. لقد أحب سيدنا زيد بن حارثة النبي ﷺ حبًا كبيرًا وكان بينه والنبي ﷺ حبًا كبيرًا لدرجة أنه عرف بين الصحابة بأنه زيد بن محمد.

وقصة هذا الأمر هي أنه أصابه سباء في الجاهلية؛ لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن، فأغارت عليهم خيل بني القين بن جسر، فأخذوا زيدًا، فقدموا به سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعتمته خديجة بنت خويلد، وقيل: اشتراه من سوق حباشة، فوهبته خديجة للنبي ﷺ بمكة قبل النبوة وهو ابن ثماني سنين، وقيل: بل رآه رسول الله ﷺ بالبطحاء بمكة ينادي عليه ليبيع، فأتى خديجة فذكره لها، فاشترته من مالها، فوهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه.

ثم إن ناسًا من كلب حجوا فرأوا زيدًا، فعرفهم وعرفوه فانطلق الكلبيون، فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه، وعند من هو، فخرج حارثة وأخوه كعب ابنا شراحبيل لفدائه، فقدموا مكة، فدخلوا على النبي ﷺ: فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، جئناك في ابننا عندك فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه. فقال: مَنْ هُوَ؟ قالوا: زيد بن حارثة. فقال رسول الله ﷺ: فَهَلَّا غَيْرَ ذَلِكَ. قالوا: ما هو؟ قال: ادْعُوهُ وَخَيِّرُوهُ، فَإِنْ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ، وَإِنْ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِي أَحَدًا.



قالا: قد زدتنا على النصف وأحسننت. فدعاه رسول الله ﷺ فقال: هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ؟ قال: نعم. هذا أبي وهذا عمي. قال: أَنَا مَنْ قَدْ عَرَفْتُ، وَرَأَيْتَ صُحْبَتِي لَكَ، فَاخْتَرْنِي أَوْ اخْتَرْهُمَا. قال: ما أريدهما، وما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد، أختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك؟! قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: يَا مَنْ حَصَرَ، اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي، يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ. فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما وانصرفا.

ولما نزل الوحي كان سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وحدثه النبي ﷺ عن الإسلام، وكيف سيكون رد فعل من أحب النبي ﷺ كل هذا الحب.

وما كان إيمان سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه عن حب فقط، فمن المؤكد أنه أعمل عقله، فترك الدين إلى دين آخر ليس أمراً سهلاً.

ولو فكرنا مع سيدنا زيد بن حارثة لوجدنا أنه من خلال معايشة سيدنا زيد للرسول ﷺ ما جرب عليه كذباً، أيعقل أن يترك **الكذب** على الناس ليكذب على الله.

هو يرى محمد ﷺ في عون الناس جميعاً، وبدون مقابل، هل سيطلب لنفسه مصلحة ذاتية وبعد أربعين سنة مضت من عمره.

لقد رأيت هذا الرجل العظيم العفيف كان بعيداً عن كل الموبقات والفواحش والمعاصي في فترة شبابه كلها، فهل هذا الرجل يلعب بدين الناس وبعقيدتهم؟.

ولو كان هذا الرجل يريد السيادة والملك في مكة أكان يأتي بدين جديد أم يسلك أقرب الطرق وصولاً إلى ذلك، والمحبة إلى نفوس القوم وهو طريق اللات والعزى.

من المؤكد أن كل هذه الأفكار وغير هذه الأفكار جالت بذهن سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه.

ولا بد أن كل الإجابات كانت تقضي إلى نتيجة واحدة هي أن هذا الرجل صادق فيما يقول.

آمن سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه وإن كان قد آمن بقلبه أولاً، لكنه آمن بعقله أيضاً.

سرية الدعوة وعالمية الهدف!



مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ يريد أن يصل بدعوته لكل إنسان في مكة. بل لكل إنسان على ظهر الأرض، ويتخيل البعض أنه كان من السهل على الرسول ﷺ أن يقف وسط الكعبة من أول يوم أُمر فيه بالإبلاغ ويعلن للناس جميعًا أمر الإسلام، لكنه لم يفعل، بل كان يختار من يدعوهم أخذًا بكل أسباب الحيلة والحذر، فيذهب إلى الرجل فيسرّ له في أذنه بأمر الإسلام، ويدعوه سرًّا، ولم يعلن لعموم الناس أمره.

والدعوة السرية لم تستمر يومًا أو اثنين، بل استمرت فترة طويلة بالنسبة لعمر الدعوة الإسلامية فكانت حوالي ثلاث سنوات. وبعض الناس يعتقدون أن الرسول ﷺ عندما وقف على الصفا وقال للناس: “أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟”.

يعتقدون أن هذه المقولة كانت في بدء الدعوة وبعد نزول أمر الرسالة مباشرة، والواقع غير ذلك، لقد كانت هذه الكلمة بعد ثلاث سنوات كاملة من نزول الوحي.

دعوة سيدنا علي بن أبي طالب

إن كنا قد وقفنا مع إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها، وإسلام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وإسلام سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه.

فلا بد من وقفات مع إسلام سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هذا الطفل الذي آمن، وما تجاوز العشر سنوات، إن إسلام سيدنا علي في هذه السن هو شيء في منتهى الغرابة.

ويمكن وجه العجب والغرابة في عمره الذي ما تجاوز السنوات العشر، يستأنمه النبي ﷺ ويُسَرِّ إليه بهذا الدين الجديد في مثل هذه المرحلة السرية من الدعوة، وغريب أيضًا أن يفهم طفل في مثل هذه السن هذه القضية الكبيرة التي خفيت على كثير ممن يسمونهم حكماء في مكة.

وهذا الأمر يحتاج منا إلى وقفة:



أولاً: كان سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمثابة ابن النبي ﷺ كزبد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يعيش مع النبي ﷺ في بيته، والسبب في ذلك هو أن قريشاً أصابهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال يوماً رسول الله ﷺ لعمه العباس: يا عم إن أبا طالب كثير العيال، فانطلق بنا نخفف عن عيال أبي طالب، فانطلقا إليه وأعلماه ما أرادا، فقال أبو طالب: اتركا لي عقيلاً واصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً، وأخذ العباس جعفرًا، فلم يزل علي عند النبي ﷺ حتى أرسله الله، فاتبعه.

وقال ابن إسحاق: وكان من نعمة الله عليه.

كان علي بن أبي طالب يعتقد الصواب في كل كلمة يقولها الأب الحنون النبي ﷺ، كما يعتقد كل طفل الصواب في كلام أبيه. ولقد ترسخ في نفس علي بن أبي طالب رضي الله عنه حب كبير للنبي ﷺ منذ نعومة أظفاره، فكما قلنا: إن منهج النبي في الدعوة يقوم على الحب أولاً ثم الحجة.

ثانياً: أن النبي ﷺ لاحظ نبوغاً مبكراً، وعبقورية ظاهرة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فاطمئن النبي ﷺ إلى أن يخبره بأمر الرسالة مع أن هذا الأمر خطير، ولا يزال سرّاً، ولا يعلم إلى متى سيظل هذا الأمر سرّاً.

وقد يظن البعض أن النبي ﷺ يخاف أن يخبره بهذا الأمر للظروف التي تحيط بالدعوة، لكن الواقع أن سيدنا علي كان عبقرية فذاً، وبمرور الأيام صدقت فراسة النبي ﷺ، وكان سيدنا علي من أكثر الصحابة قدرة على استنباط الأحكام والقضاء في الأمور، بجانب فراسته وعلمه وفقهه رضي الله عنه.

ثالثاً: في الحقيقة هذه وقفة مع النبي ﷺ في اختياره لمن يدعوهم، فبدعوة النبي ﷺ لسيدنا علي، وبإسلامه كان هناك تنوع عجيب لمن دعاهم النبي ﷺ واختارهم في بادئ الأمر، وكان يوضح لنا أمراً في غاية الأهمية، وهو أن مجال الدعوة أوسع مما قد نتخيل، فهؤلاء الأربعة الأوائل: فيهم الرجال، وفيهم النساء، فيهم السادة، وفيهم العبيد، فيهم الكبار، وفيهم الصغار، وأن هذه الدعوة لا حدود لها.

أصبح علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول الصبيان إسلاماً، كما أصبح أبو بكر أول الرجال، وزيد أول الموالى، والسيدة خديجة كانت أول النساء، وكان ذلك في أول يوم في الإسلام.



ثم دعا النبي ﷺ بناته للإسلام فدعا السيدة زينب وكانت في العاشرة من عمرها، والسيدة رقية وكانت في السابعة من عمرها، والسيدة أم كلثوم وكانت في السادسة أو الخامسة من عمرها، وكلهم اعتنقوا الإسلام في هذه السن المبكرة، أما السيدة فاطمة فكان عمرها سنة على أرجح الأقوال.

كان هذا هو الوضع في بيت الرسول ﷺ.

لقد ظلت الدعوة سرية تمامًا ثلاث سنوات كاملة، ظلت الدعوة تقوم على أمر الاصطفاء والانتقاء ثلاث سنوات كاملة...

لماذا؟

لماذا لم يعلن الرسول ﷺ أمره ليسلم أكبر عدد من الناس في أقل وقت ممكن؟.

لم يفعل ذلك النبي ﷺ؛ لأنه يعلم أن دعوة الإسلام وإن كانت مقنعة للناس إلا أنها ستلقى حرًا ليس من قريش فقط، بل من كل العالم.

أكان ﷺ يخشى على نفسه من قريش؟

هذا مستحيل، فهو لا شك يعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، بل كانت هذه هي الحكمة في الدعوة.

ومن الممكن أن تقول: إن السرية في الدعوة في هذه المرحلة لم تكن اختيارًا نبويًا، بل كانت أمرًا إلهيًا، فالله عز وجل يعلم نبيه ﷺ ويعلم أتمه منهج التغيير في مثل هذه الظروف، وكيف تغير الأجيال القادمة من حالها في غياب رسول، وكيف التغيير إذا توافقت الظروف مع ظروف النبي ﷺ في مثل هذه المرحلة.

إن الله عز وجل قادر على حماية رسوله ﷺ، فلا يصل له أدنى من أحد من قريش، ومع ذلك فهو يريد منه أن يرسم الطريق الصحيح للمسلمين لإقامة هذا الدين مهما اختلفت الظروف ومهما كثرت المعوقات.

ولذلك تجد أن الله عز وجل قد وضع رسوله ﷺ في كل الظروف التي من الممكن أن تمر بأتمه بعد ذلك، وعلم رسوله ﷺ كيف يتعامل مع كل ظرف، وكيف يصل بدعوته إلى الناس في وجود المعوقات المختلفة. وبذلك حدّد للمسلمين منهجًا واضحًا لا غموض فيه؛ ليكون طريقًا لكل مسلم أو إنسان يريد أن يصل بفكرته لكل العالم تمامًا مثلما فعل رسول الله ﷺ.

** الأستاذ الدكتور راغب السرجاني أستاذ مساعد في كلية الطب جامعة القاهرة، له اهتمامات واسعة بقضايا الأمة الإسلامية وهمومها المختلفة منطلقاً من فهم عميق للتاريخ الإسلامي، وما يحفل به من عبر ودروس وتطبيقات للكثير من سنن الله في خلقه..

يركز الدكتور راغب في دراسته التاريخية على جوانب مهمة، من بينها:

- ١ - عوامل قيام النهضة في مختلف مراحل التاريخ ومدى الاستفادة من إعادة بناء الأمة الإسلامية اليوم.
- ٢ - بعث الأمل في نفوس المسلمين (وخاصة الشباب) في إمكانية نهوض الأمة الإسلامية وارتفاعها مهما بدا الواقع مظلمًا (بالنظر إلى دورات مشابهة في تاريخ الأمة).
- ٣ - إظهار الوجه الحقيقي للتاريخ الإسلامي بما كان يميزه من حضارة فريدة في مذاقها الإنساني والخلقي والعلمي والجمالي... وعلى عكس ما يظهر عليه ذلك التاريخ عند كثيرين مليئًا بالصراعات مقتصرًا على الجوانب السياسية فقط.
- ٤ - وعلى مدار عشرين عامًا من التواصل العميق مع كنوز التاريخ الإسلامي.. وعبر العديد والعديد من دول العالم (في أمريكا الشمالية وأوروبا إلى جانب مصر ودول الخليج العربي...) كان للدكتور/ راغب السرجاني المئات من الإسهامات العلمية والدعوية ما بين محاضرات ومقالات وتحليلات للتاريخ والواقع الإسلامي.